توظيف المصطلحات الأسلوبية في الدّراسات النّقدية للتّراث اللغوي

حاج علي عبد الرحمان●

الملخص:

يهدف هذا البحث اللغوي إلى إيضاح طبيعة العلاقة المصطلحية بين الدّرس اللغوي التراثي ونظيره المعاصر، ما يمكن أن يوصلنا لنتائج تتيح للباحث ربط الجسور العلمية ودعمها من أجل الوصول إلى دراسات أصيلة وثابتة الأسس من جهة وواسعة الأفق الإبداعي من جهة أخرى. حيث تكتسي المصطلحات أهمّيةً بالغة في تحديد التّوجهات البحثية وبناء النظريات العلميّة، وأثرها جليٌّ في النّظريات النّقدية الحديثة، وحتّى في التراث الأدبينجدها متداولةٌ على نطاقٍ واسع بالرغم من عدم تخصيصها بمباحث ودراسات معمّقة؛ من هذا المنطلق يمكن للباحث والنّاقد أن يرسم طريقه نحو تحليل النّصوص التراثيّة دون أن يتّصف بالرّجعية ولا التّعصّب للأصالة على حساب المعاصرة. وكمجال تطبيقي يحاول البحث إسقاط مصطلحات علم الأسلوب على الدرس النقدي التراثي.

Abstract :

This linguistic research aims to clarify the nature of the terminology and the relation between ancient linguistic studies and contemporary counterpart, what can get us to the results allows the researcher to support scientific links between authentic and consistent studies. Where the terminology has an importance in determining research directions and build scientific theories; what help the researcher to draw his way towards the traditional analysis of texts without terminological problems on the contemporary account. And in the practical side, this research is trying to to apply the stylistic terms on ancient critical studies.

● أستاذ محاضر ب،جامعة مستغانم

إن النظريات النقديّة المعاصرة حتى وإن كانت تبدو في ظاهرها جديدةً وحاملةً لأفكار وبرامج وتوجّهات حداثيّة محضة، إلاّ أنّها أبداً لم تتخلّى عن منطلقاتها التّأسيسيّة الأولى المستمدّة من عمق الإبداع الأدبي التّراثي، ويمكن القول بأنّ المصطلحات لعبت دوراً رئيساً في عمليّة الوصل بين ما هو تراثي وما هو معاصر، من خلال السّماح بتطوير المفاهيم التي تحملها وإيجاد مرادفات مناسبة لكلّ موقفٍ أدبي وتحليليّ.

إنّ النّفور من التّراث الأدبي واللغوي له أسباب ومن هذه الأسباب محاولة طمس معالمه المصطلحيّة، وإدخال مصطلحات التّعمية على الدّرس النّقدي واللغوي، وبما أنّ النّقد من أهدافه الرئيسية خدمة الأدب وتوجيه الكتابة الأدبية نحو الأفضل، كان لزاماً على الكتّاب والمبدعين مسايرة التّطورات الحاصلة في النّقد، ولكن وجدوا أنفسهم يبتعدون عن المعايير التي نشأ عليها الأدب العربي، ما وسّع الهوة بين التّراث والمعاصرة. حيث أنّ المهتمّين بالتّراث لم يبق لهم من وسيلة لارتشاف عبق التّراث سوى محاولة استخراج أوجه الإبداع فيه -وما أغزرها- وإبرازها للمتلقّين عن طريق دراسات وبحوث نقديّة. فهل يمكن قراءة التّراث بطرائق ومناهج حديثة؟ وبالتّحديد: ما مدى تأثير المصطلح في قراءة النّصوص التّراثية وفق النّظريّات النّقدية المعاصرة؟ باعتبار المصطلحات مفاتيح لدخول النّصوص وخوض غمار التّجربة النّقديّة.

مثالٌ على ذلك النّظرية البنيويّة الّتي كانت تعتمد في بداياتها نُظماً إقصائيّة اعتُبرت مجحفةً في حقّ عناصر العمليّة التّواصليّة، وبتواصل الأبحاث تطوّرت النّظريّة وتعرّضت لعدّة تغييرات ولازالت، ولكنّها أبداً لم تلغ ولم تتنصّل من أسسها المنهجيّة البنيويّة حتّى أنّ تسميات النّظرية كانت تتغيّر في عديد الأحيان لكنّها ما تلبث أن تعتبر فروعاً للنّظرية الأصلية. و"إذا انتقلنا إلى مجموعة التّصورات البنيويّة للأسلوب أمكننا أن نميّز فيها بين ثلاثة اتجاهات: اتّجاه النّاقد البنيوي الأوّل بارت، واتّجاه ريفاتير أبرز باحث في الأسلوبيات في هذا النّصف الثاني من القرن العشرين، واتجاه النّحو التّوليدي في جملته وما تفرّع عنه"[1]. وكلّها تصوّرات بنيويّة، تختلف في الجزئيات وتلتقي في المبادئ والأصول والكلّيات.

لقد فرض "المصطلح" نفسه في التّغيرات الفكريّة والنظريّة، وحتّى التّطبيقية، لذا لابدّ من البحث عن المؤثّرات التي يتأثّر بموجبها ويتمّ ضبطه وفقها. ومن بين أهمّ المصطلحات التي ترتسم من خلالها معالم النّظريات النّقديّة الحديثة والمعاصرة: الأسلوب- القارئ- التّلقّي وقد أثيرت عديد القضايا وتغيّرت توجّهات الكثير من الأبحاث والدّراسات حول هذه

[1]- صلاح فضل، علم الأسلوب–مبادئه وإجراءاته-، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1419هـ/ 1998م، ص108.

المصطلحات، ومن خلال تتبّع مسار توظيفها واستعمالها وتحديد مفاهيمها يمكن إرجاعها إلى أصولها التّراثيّة وملاحظة مدى اهتمام الأوّلين بها نقّاداً ومبدعين، وبذلك تحصل المقاربة بين النّصّ التّراثي والنّقد المعاصر.

- **"الأسلوب" مصطلحاً نقديًّا:**

جاء في لسان العرب لابن منظور من مادة س ل ب: "يُقالُ لِلسَّطْرِ مِنَ النَّخِيلِ: أُسْلُوبٌ. قالَ: وَالأُسْلُوبُ الطَّرِيقُ وَالْوَجْهُ وَالْمَذْهَبُ، يُقالُ: أَنْتُمْ في أُسْلوبِ سُوءٍ، ويُجْمَعُ أَساليبَ. وَالأُسْلُوبُ: الطَّرِيقُ تَأْخُذُ فِيهِ. وَالأُسْلُوبُ، بِالضَّمِّ: الْفَنُّ، يُقالُ: أَخَذَ فُلانٌ في أَساليبَ مِنَ الْقَوْلِ، أَيْ أَفَانِينَ مِنْهُ"[1]. إنّ أكثر ما يُلفت في هذا التّعريف، هو قول ابن منظور الأسلوبُ بالضَّمِّ الفَنُّ، يُقال: أخذ فلان في أساليبَ من القَولِ، حيث يتّضح أنّ الأسلوب ليس فقط طريقةً في القول، وإنّما طريقةً مبدَعَةً وتراكيبَ جماليّة تنماز عن الكلام العادي لتشكّل عملاً فنيّاً. فهو إذن ذلك الطّابع الذي تتقولب فيه المعاني والتّراكيب لتَخرج لنا مصقولةً ومعبّرةً عن الفكرة كما هي في ذهن مبدِعِها.

ويعرّفه ماهر أحمد الصّوفي، يقول: "الأسلوب في لغة العرب إطلاقاتٌ مختلفة: فيقال للطّريق بين الأشجار، وللفنّ، وللوجه، وللمذهب، وللشُّموخ بالأنف، ولعنق الأسد، ويقال لطريقة المتكلّم في كلامه أيضاً"[2]، وهذا الإطلاق الأخير هو الذي يهمّ الباحث والمحلّل الأسلوبي.

ويعرّفه الجرجاني، في دلائل الإعجاز بقوله: "والأسلوب الضَّرْبُ من النَّظم والطّريقةُ فيه"[3]، والجرجاني لا يختلف عن بقية من عرّفوا الأسلوب في كونه طريقةً وضرباً، ولكنّه يشدّد على أنّ جوهر الأسلوب يكمن في النّظم، لتأتي بقيّة طروحات الجرجاني في هذا الباب حول اللفظ والمعنى.

أمّا عند الغربيّين فاشتُقّت كلمة أسلوب style[En/Fr] من "الأصل اللاتيني stilus وهو يعني ريشة ثم انتقل عن طريق المجاز إلى مفهومات تتعلّق كلّها بطريقة الكتابة، فارتبط أوّلاً بطريقة الكتابة اليدويّة، دالاً على المخطوطات، ثم أخذ يُطلَق على التّعبيرات اللّغوية الأدبية، فاستُخدِم في العصر الرّوماني –في أيام خطيبهم الشّهير شيشرون- كاستعارةٍ تشير إلى صفات

[1]- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، القاهرة، مصر، طبعة دار المعارف، مادّة (س ل ب)، ص2057.

[2]- ماهر أحمد الصَّوفي، آيات الله في الإعجاز اللّغوي والبياني والتشريعي والغيبي في القرآن الكريم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 1429هـ/ 2008م، ص234.

[3]- أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرّحمن بن محمّد الجرجاني النّحوي ت471 أو 474هـ، دلائل الإعجاز، قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 2000م، ص468-469.

اللّغة المستعملة"[1]، حتّى صار أكثر استخدامه في مجال اللّغة.

و"الأسلوب" كمصطلح أكاديمي "استُخدم في النّقد الألماني منذ أوائل القرن التّاسع عشر في معجم 'Grimm' وورد لأول مرّة في اللّغة الإنجليزية كمصطلح عام 1846 طبقًا لقاموس أكسفورد، ودخل القاموس الفرنسي لأول مرّة كمصطلح عام 1872م"[2].

والأسلوب الأدبي يختلف من مبدعٍ إلى آخر، ولمّا كانت الإمكانات الّتي تتيحها اللّغة لا متناهية -ما دامت لا تخرج عن القواعد الأساسيّة- نجد كلّ مبدعٍ يستفيد من هذه الحرّية ويطلق العنان لفكره ويتميّز بأسلوبه الخاصّ، وحول هذا الطّرح يقول محمد عبد المطّلب: "الأسلوب إذًا ينصبّ على الطّريقة الخاصّة في ترتيب المعاني، وما تحويه هذه الطّريقة من إمكاناتٍ نحويّة تميّز ضربًا عن ضرب، وأسلوباً عن أسلوب"[3]، فبالرّغم من أنّ الكلمات هي نفسها والقواعد التّركيبية هي ذاتها، إلاّ أنّ مجال اللّغة الواسع يتيح لكلّ من يريد التّأليف أو الكتابة أن يمتاز بطابعه الخاصّ، وطريقتِه الّتي يحبّذها في رصف أفكاره وتوزيعها في نصوصٍ وعبارات. فالأسلوب "هو طريقة التّفكير والتّصوير؛ وهذا التّحديد يتناول بالدّرجة الأولى عناصر الأسلوب التي تتحقّق بوجود الصّلة بينها، كما أنّه يتضمّن المراد من الأسلوب في سائر الفنون من حيث هو تفكيرٌ وتصويرٌ وتعبير"[4]، دون قصره على علمٍ أو فنٍّ أو مجالٍ محدّد، وربما يكون هذا التّعريف من المبادرات الهادفة لتخليص الأسلوب والدّراسة العلميّة ككلّ من عصبيّة تحديد مجالات البحث.

نجد نفس الطّرح عند أحمد حسن الزّيات، الّذي يرى أنّ تحديد الأسلوب يعتمد على طريقة الكاتب أو الشّاعر الخاصّة في اختيار الألفاظ وتأليف الكلام[5]، ويمكن أن يكون ذلك عن قصد أو بصفةٍ عفويّة، وذلك على حسب الموضوع والموقف الّذي تتمّ فيه عمليّة التّأليف.

وباعتبار ثنائية اللّفظ /والمعنى، فـ"قد ظهرت كلمة الأسلوب في تراثنا القديم على نحوٍ ربطت فيه بين مدلول اللفظة وطرق العرب في أداء المعنى، أو بينه وبين النّوع الأدبي وطرق صياغته، كما أنها ربطت –أحياناً- بينه وبين شخصيّة المبدع ومقدرته الفنّية، كما أنها ربطت –

1- صلاح فضل، علم الأسلوب، ص93./ وينظر: محمد كريم الكوّاز،الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، جمعية الدّعوة الإسلامية العالمية، بنغازي، ليبيا، ط1، 1426هـ، ص48./ و: يوسف أبو العدوس، البلاغة والأسلوبية –مقدّمات عامة-، الأهلية للنشر، عمّان، الأردن، ط1، 1999م، ص161.

2- المرجع نفسه، ص94.

3- محمد عبد المطّلب، البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، مصر، ط1، 1994م، ص26.

4- محمد عبد المطّلب، البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، مصر، ط1، 1994م، ص10

5- المرجع نفسه، ص99.

أيضًا- بينه وبين الغرض الذي يتضمّنه النّص الأدبي"[1]. وعلى قدر تحكّم المبدع في العملية التركيبية بين اللّفظ والمعنى والفكرة، تكون قيمة أسلوبه وفنّيته.

من جانبٍ آخر، لطالما "اقترنت كلمة الأسلوب بالفنّ، وأدّى هذا إلى معنى الأصالة والتّجديد، فلا أخذ أحدهم في فنونٍ من القول إلاّ كان مُجوّدًا فيه ماهرًا، وإلاّ كان ذلك لقصدٍ منه، فكان الخطيب عند العرب لا يأتي بالكلام على طريقٍ واحد وإنما يفتنّ فيه فيوجز ويطنب ويُكَنّي، وغير هذا ممّا يتلاءم مع أحوال السّامعين ومقام الكلام"[2]، فتجتمع لديه مكوّنات الأسلوب الفنّي المبدع.

ونجد الأسلوب دائماً يُذكر إلى جانب الفنّ، والبلاغة، وحَسَن القَول. يقول عبدالكريم الكوّاز: "دلّت على مفهوم الأسلوب مصطلحاتٌ أخرى كالفنّ ولحن القول ولم يشيعا شيوع الأسلوب، الّذي وجد مجالاً خصبًا في ميدان دراسة الإعجاز البلاغي، إذ كان ملبّيًا لغرض العلماء في التّفريق بين القرآن الكريم وكلام العرب من حيث البلاغة المعجزة وخروج نمط الكتاب الحكيم عن نمط الكلام المتعارف عليه بين النّاس"[3]، وكان هذا في بدايات الدّرس اللّغوي العربي، حيث كان لابدّ من تحديد أقرب مجال يمكن أن يُنسب إليه الأسلوب حتّى يتمّ التّأسيس له، ولكن ليس كعلم، حيث كان لا يزال فتيًّا مقارنةً بالبلاغة وعلوم اللّغة، وإنّما كموضوعٍ قابل للبحث والإضافة والتّعديل.

بناءً على هذه المعطيات، يعرّف منذر عياشي الأسلوب بعبارةٍ غاية في الدّقة والإيجاز وجزالة المعنى، بقوله: "الأسلوب نظامٌ لغويٌّ يقيمُه شكلُه الخاصّ"[4]، فبالإضافة إلى أنظمة اللّغة الصّوتية والتّركيبيّة، نجد أن لكلّ أسلوبٍ ميزاته الخاصّة التي لا نجدها في أسلوبٍ آخر، وهذا دائماً يرجع إلى الإمكانيات الّتي تتيحها اللّغة ومدى التّحكم بها.

وللتّفريق بين ما تضعه العلوم على اختلافها من قواعد صارمة، وبين ما يعتمده المبدع ليتميّز بأسلوبه المتفرّد، يُذكَر أنّ الأسلوب ليس "معطى مباشرًا، إنّه موسيقى بالصّوت، ورسمٌ بالكلمة، وإيحاءٌ بالعبارة، وصورةٌ يبيّنها النّص"[5]، بحيث يجعل المؤلّف من اللّغة وقواعدها وسيلةً ليحقّق جماليّةً فنيّةً، و يبدعَ عباراتٍ شجيّة، فلا تصبح قواعد اللّغة قيداً بل هي في فكر المبدِع أدواتٌ لصقل الأفكار وإيصالها إلى المتلقّي في صورةٍ جماليّة، وهنا يمكن القول بأنّ

1- محمد عبد المطّلب، البلاغة والأسلوبية، ص172.
2- محمد كريم الكوّاز، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، ص48.
3- المرجع نفسه ، ص48.
4- منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سورية، ط1، 2002م، ص142.
5- المرجع نفسه، ص86/85.

"الأسلوب نظامٌ تؤدّي اللّغة فيه وظائفَ مخصوصة[1]، عكس العلوم اللّغوية التي تكمن وظيفتها في تأدية وظيفةٍ مخصوصةٍ في اللّغة.

يدخل في تعريف الأسلوبية أيضًا عامل 'الاختيار'، فالأسلوبيّة تُعنى بدراسة الأسلوب باعتباره استعمالاً خاصًّا للّغة يقوم على الاختيار؛ والوسيلة المتّبعة لتمييز الأساليب هي المقارنة، وأيّة نظريّةٍ أسلوبيّةٍ تنطلق من مبدإٍ عامٍّ يَقضي بأن المعنى الواحد يمكن التّعبير عنه بأشكال مختلفة[2]، ولكلّ شكلٍ وقعه وأثره على المتلقّي، كما أنّ كلّ اختيار يكشف جزءًا من شخصيّة صاحبه، وتوجّهه الفكريّ، ومنهجه في الكتابة.

وهناك فرق بين الاختيار والمقصديّة، إذ أن الأوّل يمكن أن يكون عن قصدٍ أو عن غير قصد، بينما المقصديّة وإرادة التّأثير فهي هدف المؤلّف، حيثُ "يعتمد المفهوم الوظيفي للأسلوب على فكرةٍ قديمة تصوّره ابتداءً كعمليّة اختيارٍ واعية أو غير واعية لعناصر لغويّة معيَّنة، وتوظيفها عن قصدٍ لإحداث تأثيرٍ خاصّ هو التّأثير الأسلوبي"[3]، فكلّ استعمالٍ للّغة له وظيفة معيّنة في تأدية فكرةٍ بعينها.

إنّ عدم خضوع الأسلوب لقواعد صارمة أو حدود مضبوطة، يتيح للمبدع إضفاء لمساته الخاصّة على الأفكار،وإخراجها في قالبٍ لغويّ هو الأقرب إلى ما يجول في خاطره، وبذلك تكتسي العمليّة التّواصلية طابع المصداقيّة والثّقة بين الأطراف. وبالإضافة إلى هذا لابدّ للأسلوب من ركيزةٍ ومرجعيّةٍ تُبنى عليها العمليّة النّقديّة للعمل الأدبي، فاعتُمد مبدأ "العدول"،الّذي يمكن اعتباره جسراً بين اللّغة بقواعدها والإبداع الأدبي، ويقوم هذا المبدأ على "أنّنا إذا أولينا الاهتمام بالنّظام وقدّمناه على الإنتاج،فإنّنا نعطي الأسلوب تعريفًا جماعيًّا،ونستعمله في عملٍ تصنيفيّ،ونجعل منه أداةمن أدوات التّعميم؛ أما إذا كان الأمر على العكس من ذلك، وأولينا انتهاك النّظام، والتّجديد، والقراءة اهتمامنا، فإنّنا نُعرّف الأسلوب حينئذ تعريفاً فرديًّا، ونسند إليه وظيفةً فرديّة،ولكن كلّ هذا يقودنا إلى التّفكير فيه كذلك على أنّه سمةٌ مميَّزة ونظامٌ بآن"[4]،فلا يفقد أهمّيته كعلم ولا ميزته كفنّ.

لمزيد من التّحديد والتّوضيح قسّم منذر عياشي تعريف الأسلوب إلى أقسامٍ ثلاثة: "التّعريف الشّائع، تعريف الكُتّاب،التّعريف اللّساني"[5]،وهذه التّعريفات يمكن اعتبارها انعكاساتٍ لكلٍّ من: أسلوبيّة التّلقي، وأسلوبيّة الفرد، وأسلوبيّة التّعبير،وبهذا التّقسيم يتّسع

1- منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب ، ص92.
2- محمد كريم الكوّاز، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، ص111.
3- صلاح فضل، علم الأسلوب –مبادئه وإجراءاته-، ص242.
4- منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ص29.
5- المرجع نفسه، ص33.

مجال تأثير الأسلوب خارج الإطار اللّغوي وكذا إطار النّص، ويصبح الأسلوب حدثاً يمكن ملاحظته: إنّه لسانيٌ لأن اللّغة أداةٌ بيانيّة؛ وهو نفسيٌ لأن الأثر غايةُ حدوثه؛ وهو اجتماعيٌ لأن الآخر ضرورةُ وجوده[1]،وهو بذلك يرافق العمليّة التواصـــليّة منذ نشوء الفـكرة إلى حين ترجيع المتلقّي.

إنّ ما يميّز الأسلوب هو توفيقه بين الجانب اللّغوي والجانب الأدبي الجمالي، فقد "يكون الأسلوب كلمةً، أو لونًا أو إشارة، أو أيّ مادّةٍ من المواد، غير أن مادّته الخارجيّة لن تكون ما لم يكن النّظامُ أداةً تُشكّلها، ولذا يمكننا أن نقول فيه: الأسلوب شكلٌ يُقِيمُه نظامُه. وإذا كان الأسلوب نظاماً، فإنّه نظامٌ متضمَّن في النّظام اللّغوي، بمعنى أن قواعده المتناهية قادرةٌ على إنتاج أشكاله غير المتناهية"[2]،في صورةٍ متناغمة،فالأسلوبُ ذاته هو الّذي يحدّد نظامه الخاصّ، الّذي لا يمكن نقده، إلاّ من خلاله.

وعن علاقة الأسلوب بالتّراكيب اللفظية والجمليّة، يجب الانتباه إلى كون "الأسلوب غير المفردات والتّراكيب التي يتألّف منها الكلام، وإنما هو الطّريقة التي انتهجها المؤلّف في اختيار المفردات والتّراكيب لكلامه. وهذا هو السّر في أن الأساليب مختلفةٌ باختلاف المتكلّمين من ناثرين وناظمين، مع أن المفردات التي يستخدمها الجميع واحدة،والتّراكيب في جملتها واحدة، وقواعد صوغ المفردات وتكوين الجمل واحدة"[3]،فالاختلاف يكمن في طريقة الرّصف وجمال الوصف.

التّفرّد في الأسلوب لا يعني بالضّرورة استعمال ألفاظٍ أو تعبيراتٍ غريبة أو غير متداولة،وإنّما يتعلّق الأمر بمواءمة التّراكيب،وحُسن التّأليف؛ "وهذا هو السّر أيضاً في أن القرآن لم يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربيّة، من حيث ذوات المفردات والجمل وقوانينها العامّة، بل جاء كتاباً عربيًّا جارياً على مألوف العرب من هذه النّاحية، فمن حروفهم تألّفت كلماته، ومن كلماتهم تألّفت تراكيبه، وعلى قواعدهم العامّة في صياغة هذه المفردات وتكوين التّراكيب جاء تأليفه، ولكن المعجِز والمدهِش والمثير لأعجب العجب، أنه مع دخوله على العرب من هذا الباب الذي عهدوه، ومع مجيئه بهذه المفردات والتّراكيب التي توافروا على معرفتها، وتنافسوا في حلبتها، وبلغوا الشّأو الأعلى فيها، نقول: إن القرآن مع ذلك كُلّه وبرغم ذلك كلّه قد أعجزهم بأسلوبه الفذّ، ومذهبه الكلامي المعجز، ولو دخل عليهم من غير هذا الباب الذي يعرفونه لأمكن أن يُلتمس لهم عذرٌ أو شبه عذر، وأن يسلم لهم طعنٌ أو شبه طعن"[4]، فهو في

1- المرجع نفسه، ص25.
2- المرجع نفسه ، ص38.
3- ماهر أحمد الصوفي، آيات الله في الإعجاز، ص234-235.
4- المرجع نفسه، ص234-235.

أعلى درجة من الأسلوب والتّأليف.

مفهوم الأسلوب وجوهره ليس فيه اختلافٌ أو تباعد كبير بين اللغويين والنُّقاد والبلاغيين، فقد "تواضع المتأدّبون وعلماء العربية، على أن الأسلوب هو الطّريقة الكلاميّة الّتي يسلُكها المتكلّم مع تأليفِه كلامَه واختيارِ ألفاظِه، أو هو المذهب الكلامي الّذي انفرد به المتكلّم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه، أو هو طابعُ الكلام أو فنُّه الّذي انفرد به المتكلّم كذلك"[1]، وتبقى الاجتهادات في التّحليل متعلّقةً بكشف أغوار أسلوب كاتبٍ أو نصٍّ ما، وفق مناهج ومستويات تشمل كلّ زوايا العمل المطروح للدّراسة، وظروفه المحيطة. ومن هنا نصل إلى أنّ الأسلوب حلقة وصل بين الأدب والنّقد مهما اختلفت التّوجّهات والنّظريات والآراء والتّحليلات، فالأسلوب في النّقد لا تلغيه الأزمنة والمسافات.

- **الأسلوبية والنّقد:**

رغم تطوّر الأسلوبية واستقلالها كعلم قائم له مباحثه ومناهجه التّحليليّة وأطره التّطبيقيّة إلا أنها حافظت على المباحث التي تحفظ صلتها بالعلوم الفنون الأخرى كاللسانيات والنّقد، و"الأسلوبية هي صلة اللّسانيات بالأدب ونقده. وبها تنتقل من دراسة الجملة لغةً إلى دراسة اللّغة نصًّا، فخطابًا، فأجناسًا"[2]، فلا تكون هناك قطيعةٌ بين مختلف العلوم والفنون الأدبية، ولا تعدٍّ على مواضيع بعضها البعض، بل دراساتٌ متكاملةٌ مترابطة، متناسقة الجوانب والأبعاد.

ومثلما هو عليه الأمر بالنّسبة للبلاغة، "يمكن أن نجد في حركة النّقد العربيّ القديم ما يقرّبه أو بمعنى آخر يصله بحركة الدّرس الأسلوبي. يتمثّل ذلك في عمليّة التّمازج بين النّقد والبلاغة والنّحو، حيث أصبحت بحوث النّحو -بين المنهجيّة- وسيلةً لتقويم الأسلوب ورَصد خواصّه، مثلما نجد في الحديث عن التعجّب والاستفهام –مثلاً- وخروجهما عن الغرض الأصلي إلى أغراض إضافية تمثِّل قيماً جماليّة تعبيرية في النّص الأدبي"[3]، ومن مثل هذه المواضيع المشتركة بين النّحو والنّقد تشكّلت معالم مواضيع علم الأسلوب.

تحتلّ الدّراسات الأسلوبية "مكانةً متميّزةً في الدّراسات النّقدية المعاصرة، ويقوم كثيرٌ من هذه الدّراسات على تحليل الأعمال الأدبيّة واكتشاف قيمتها الجماليّة والفنّية انطلاقاً من شكلها اللّغوي"[4]، وصولاً إلى جوهرها الدّلالي.

1- المرجع نفسه ، ص234.
2- منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ص27.
3- محمّد عبد المطّلب، البلاغة والأسلوبية، ص171.
4- أحمد درويش، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، دار غريب، القاهرة، مصر، 1998م، ص13.

وتهدف النّظرة الأسلوبية الحديثة إلى مزج المقاييس اللّغوية بالأصول النّقدية، استنادًا إلى أنّ عمليّة الإبلاغ إخباريّةٌ بالدّرجة الأولى، ثمّ تتلوها عمليّة الإثارة الّتي تكمن في جماليّات العمل الأدبي[1] بجميع عناصره، رميًا إلى تحقيق أسلوبيّة التّلقّي، الّتي تُعتبر من أحدث التّوجهات الأسلوبيّة. و"استقرّت اليوم نظريّة الأسلوب، أو مباحث الأسلوبيّة كمُعطى جديد للدّراسة النّقدية، تُقدّمه الممارسات العمليّة والتّطبيقية، وتُعمّقه أصالة البحث التّنظيري"[2]، خاصّةً وأنّ طبيعة الأسلوب لا تختلف عن طبيعة النّقد من حيث الجمع بين مواضيع الدّراسة اللغويّة والأدبية.

-المصطلح في النّظريّات النّقدية النّفسية والاجتماعيّة والثّقافية:

من أكثر النّظريات الحديثة والمعاصرة الّتي أسهم المصطلح بدورٍ كبيرٍ في رسم توجّهها النّقدي والتّحليلي، النّظريّة النّفسيّة، والنّظريّة الاجتماعيّة، ونظريّة النّقد الثّقافي، حيث نجد "النّاقد ينتقي ويختار من الإبداعات الأدبيّة ما يستجيب للمنهج النّقدي الّذي يؤثره، فأصحاب المنهج النّفسي اختاروا أعمالاً رأوا أنّ مصطلحات علم النّفس تستطيع أن تقرّبها إلى القارئ وتكشف عن أسرار تشكيلها الفنّي، الّذي لا يستطيع منهجٌ نقديٌّ آخر أن يؤيّده بذات المستوى من النّجاح، وأصحاب المنهج الاجتماعي آثروا رواياتٍ بعينها، ليستلبوا جوانب القوّة فيها لصالح منهجهم، زينب ويوميات نائب وروايات أخرى قادرة على إبراز إيجابيّة منهج النّقد الاجتماعي الواقعي، قبل إبراز قوّة الرّواية في تشكيلها الفنّي الكلّي"[3]، ثمّ جمع النّقد الثّقافي بين الجانب النّفسي والاجتماعي وبين كلّ ما يمكن أن يؤثّر في القيمة الدّلالية والجماليّة الفنّية للعمل الأدبي ووظّف لذلك معجمًا نقديًّا متنوّعًا، مسهماً في فتح المجال النّقدي وأفق القراءة النّقديّة على كلّ المستويات والظّروف المصاحبة للعمليّة التّواصليّة.

يتّضح من خلال التّطرّق لمختلف الطّروحات النّقدية الحديثة والمعاصرة، أنّها لم تخرج عن أصل النّقد وجوهره المتمثّل في كونه جهدًا علميًّا يحاول أن يجعل العمل الإبداعي أكثر وضوحاً، وذلك من خلال وسائط منهجيّة، هي أدوات النّاقد الّتي لابدّ أن تعبّر في استخدامه لها عن مدرسته النّقدية وقدرته العلمية ودرجة تمرّسه. وكما يختلف النّقاد في مناهجهم النّقدية، فكذلك يتفاوتون في القدرة ونفاذ البصيرة وسعة المعرفة النّظرية،

والممارسة التّطبيقية[4]، فالحِمل إذن لا يقع فقط على عاتق صاحب النّص، بل إنّ

1- محمد عبد المطّلب، البلاغة والأسلوبية، ص195.
2- المرجع نفسه، ص170.
3 - محمد حسن عبد الله، مداخل النقد الأدبي الحديث، الدار المصرية السعودية، القاهرة، مصر، 2005م، ص125.
4 - المرجع نفسه، ص125.

النّاقد أو القارئ باعتباره شريكاً في إنتاج المعنى يصبح مسؤولاً عن إعطاء العمل الأدبي القيمة الفنّية والجماليّة الّتي يستحقّها.

-النّقد الحداثي وقراءة التّراث :

اعتُبرت قراءة العمل الأدبي في إطار النّص وحده وإلغاء بقيّة عناصر إنتاجه إجحافاً في حقّ الإبداع، وتمّت معارضة هذا الطّرح من قبل عديد المدارس النّقديّة، ولكن ذلك لم يمنع من انبعاث فكرة الإقصاء من جديد، حيث "يمكننا أن نتأمّل الموجة النّقدية عالية الصّوت الآن: النّقد الحداثي الشّكلي، ويمكن اختصار ما ينادي به دعاته بالوقوف عند حدّ النّص الإبداعي وحده، وعدم تجاوزه إلى غيره، بعبارةٍ أخرى: القول بموت المؤلّف،أي تجريد النّص من قائله وكأنّه مجهول، وكذلك تجريد هذا النّص من كافّة ظروفه، ومن مناسبته وتاريخه ومدى تأثيره في الحقل الثّقافي أو في الذّوق العام، اكتفاءً بتحليل بنيته النّصية"[1]، وهذا التّوجه يُعتبر رجعيًّا حيث أنّه يلغي كلّ التّطورات والتّحديثات التي عرفتها النّظريّة البنيويّة ويرجعها إلى نقطة البداية، وهو إذ يرجع إلى أصول النّظرية فإنّه من جهةٍ أخرى يؤثّر سلباً أيّما تأثيرٍ على أصل الإبداع، فبإلغاء الظّروف الّتي أنتجت فيها تلك الدّرر يكون قد ألغى جزءًا كبيراً من قيمتها الفنّية والجماليّة، وكذا عبق الزّمن والمكان الّذي أنتجت فيه، كما أنّ إخضاعها لنفس المعايير الّتي تعالج بها الأعمال الحديثة والمعاصرة يعتبر غير مجدي نظراً لتغيّر المواضيع والظّروف الثّقافيّة والاهتمامات الفكريّة.

خاتمة :

إنّ تجنّب عديد من النقّاد المحدثينلمعالجة وتحليل التّراث الأدبي واللّغوي له أسباب،منهاوجود صعوبة في إسقاط المصطلحات النّقديّة المعاصرة على الأعمال التّراثيّة، وانتشار مصطلحات التّعمية على الدّرس النّقدي واللغوي بعد التّوجّه نحو الاستيراد والتّرجمة، وبما أنّ النّقد من أهدافه الرّئيسيّة خدمة الأدب وتوجيه الكتابة الأدبيّة نحو الأفضل، كان لزاماً على الكتّاب والمبدعين مسايرة التّطورات الحاصلة في السّاحة الإبداعيّة، ولكن وجدوا أنفسهم يبتعدون عن المعايير الّتي نشأ عليها الأدب العربي، ما وسّع الهوّة بين التّراث والمعاصرة وقطع حبل الوصال بينهما. ولم يبقللمهتمّين بالتّراث من وسيلةٍ لارتشاف عبقه وإبراز قيمتهواستخراج أوجه الإبداع فيه -وما أغزرها- إلاّ بعض المحاولات لإيجاد مرادفاتٍ مناسبةٍ نوعاً ما لقراءة بعض النّصوص التّراثيّة، ولكن الجهود المبذولة لا تزال تتّصف بالشّتات وعدم

[1] -المرجع نفسه، ص127.

تحقيق الفعاليّة المرجوّة في ظلّ افتقر الدّرس النّقدي واللغوي العربي لنظريّةٍ واضحة، رغم توفّر المرجعيّة التّأسيسيّة الأصيلة والموثوقة لإنتاج عديد النّظريّات المناسبة لقراءة النّصوص على تنوّع مواضيعها وتعدّد مشارب المبدعين فيها.

من هنا يمكننا الإجابة بالإيجاب على إمكانيّة قراءة النّصوص التّراثيّة وفق نظريّاتٍ نقديّةٍ معاصرة إن تمّ تحوير وتطوير هذه النّظريّاتلترتكز على أصولٍ ثابتة وتنفتح على تطوّراتٍ موضوعيّة مدروسة بعناية، لا تابعة لطوارئ مستورَدة.

قائمة المصادروالمراجع:

1. أبوالعدوس يوسف،البلاغة والأسلوبية – مقدّمات عامة- ، الأهلية للنشر،عمّان،الأردن،ط1، 1999م.
2. أبوالفضل جمال الدين محمدبن مكرم بن منظور الإفريقي المصري،لسان العرب، تحقيق عبدالله علي الكبير ومحمدأ حمدحسب الله وهاشم محمدالشاذلي، القاهرة،مصر،طبعةدارالمعارف، بدون تاريخ.
3. أبوبكر عبدالقاهر بنعبدالرّحمن بن محمّد الجرجاني النّحوي(ت471أو474ه)، دلائل الإعجاز، تعليق محمودمحمدشاكر، مكتبةالخانجي، القاهرة،مصر، 2000م.
4. أحمد درويش،دراسةالأسلوب بين المعاصرةوالتراث،دارغريب،القاهرة،مصر، 1998م.
5. صلاح فضل،علم الأسلوب–مبادئه وإجراءاته-،دارالشروق،القاهرة،مصر،ط1، 1419ه/ 1998م.
6. ماهرأحمدالصَّوفي،آيات الله في الإعجازاللّغوي والبياني والتشريعي والغيبي في القرآن الكريم،المكتبةالعصرية،صيدا،بيروت،لبنان، 1429ه/ 2008م.
7. محمدحسن عبدالله، مداخل النقد الأدبي لحديث، الدار المصرية السعودية، القاهرة، مصر، 2005م.
8. محمدعبدالمطّلب، البلاغةوالأسلوبية، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، مصر، ط1، 1994م.
9. محمدكريم الكوّاز، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، جمعية الدّعوة الإسلامية العالمية، بنغازي، ليبيا، ط1، 1426ه.
10. منذرعياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري،حلب، سورية،ط1، 2002م.